الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

برنـامج هـل تعرفـني؟

مي زيـادة

يقولون: إنّ التاريخ هو الأفراد الذين صنعوه..

وصانعو التاريخ قلّة.. ولكنّها كقلّة القمم الشامخة. كلّما علت الواحدة منها وارتفعت في الفضاء.. امتدّت جذورها بعيداً في كلّ اتجاه فتمسك الأرض أن تميد وتلتقط المطر من السحاب. فهي في جذورها العريضة تحقّق السكون والاستقرار والقوة وبارتفاعاتها تحمل الخصب والخضرة إلى دنيا الناس حين تصطدم بها غيوم السماء..

وتبقى هذه القمم فيما تقدّمه من القوة في الجذور والمطر المخصّب من الأعالي كروّاد الشعوب يواجهون برد الرياح في الشتاء وقيظ الشمس اللاهبة في الصيف ويعيشون في صميم الأخطار..

موسيقـــــى.....

إنها قصة البطولة في الفكر والفن والحرب. القصة التي يعطي فيها البطل كما ليس بعد عطائه من عطاء.. والقصة التي تختلط فيها الوقائع بالعواطف والانفعالات فلا يعود السامع أو القارىء أو المشاهد قادراً على التمييز بين بعضها والبعض الآخر. في هذه القصة تصبح الابتسامة أو الدمعة عنواناً على لوحة من لوحات الطبيعة أو رمزاً لموقف إنساني معيّن. ثمّ لا تنتهي قصة من هذه القصص المنسوجة أحداثها بالمعجبات والغرائب حتى يسقط البطل كما تسقط الشمس في المغيب لا ليذهب دون رجعة بل ليعود كما تعود الشمس في صباح اليوم التالي في مركبتها المشرقة يسوقها فارس من فرسان أحلام الحياة.

موسيقـــــى.....

- لا أدري ما إذا كنت قد قدمت نفسي إليك يا أخي المستمع. فأنا في تقدير نفسي وفي تقدير كثير من النقاد وكتاب التاريخ، من الذين شاركوا في صنع قصص البطولة في الفكر والفن. وأنا لا أبالغ حين أقول لك: إنّ ابتساماتي ودموعي، وإنّ دهراً من حياتي التي لم تلبث طويلاً في دنيا الناس، قد اختلطت

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضـان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

بأحداث كلّ قصة كتبتها على صورة من الصور. وسأحاول أن أقدّم إليك نفسي فلعلك أن تعرفني بين كثرة من أمثالي من الرجال والنساء الذين شاركوا في صنع التاريخ العربي..

- موسيقـــــى.....

- خرجت إلى الدنيا قبل مطلع القرن العشرين ببضع سنوات فرأيت النور لأول مرة في مدينة الناصرة من أعمال فلسطين. ولكنّني لم أبق في الناصرة غير فترة قصيرة. فقد انتقلت أسرتي إلى قضاء كسروان في جبل لبنان والتحقت كأية فتاة صغيرة تنتمي إلى بيت علم بمدرسة للراهبات الأجنبيات في قرية عين طورة. وهناك تعلّمت الكثير من اللغة الفرنسية والقليل من لغتي العربية. ثمّ لم ألبث حتى برزت بين زميلاتي في حسن الإلقاء وبراعة الإنشاء وجودة التمثيل المسرحي. وكانت خطبتي في حفلة "الكوخ الأخضر" التي أقيمت في بلدة ضهور الشوير بجبل لبنان عام 1911م تكريماً للفتاة اللبنانية ممثلة في شخصي، الحادث الفاصل الذي أخرجني من مرحلة التلمذة إلى مرحلة الحياة العامة..

موسيقـــــى.....

- هل عرفتني بعد هذه المقدّمة؟

أغلب الظن أنّك لم تعرفني بعد! فلنمضِ معاً في حكاية الحوادث اللاحقة لعلّك أن تتعرّف علي..

لم أكد أتمّ دراستي في لبنان حتى انتقل أبي إلى مصر وتولّى إصدار جريدة "المحروسة" في القاهرة. وكنت قد أصدرت أول تجربة أدبية لي في عالم الكتابة. لقد أصدرت ديواناً شعرياً باللغة الفرنسية تحت عنوان "زهرات حلم"...

وفي يوم من أيام ربيع القاهرة عدت إلى منزلي أسيانة حزينة ثائرة. لقد استبانت لي حقيقة مزعجة قبل قليل حين كنت أستمع في قاعة جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم) إلى محاضرة تلقيها السيدة لبيبة هاشم تحثّ فيها بنات جنسها على مواجهة الحياة بجدّ وجدارة وعلى مشاركة الرجل في الدرس والعمل والتحصيل. وكم تألمت حين رأيت المستمعات مشغولات عن السيدة المحاضرة بأحاديث هامسة خاصة وبتبادل التعليقات التافهة والضحك دون المبرر. وأدركت أنّ عليّ أن أدلي بدلوي وأن أشارك السيدة المحاضرة في كفاحها من أجل توعية المرأة العربية على واجباتها. ثمّ جلست إلى الطاولة وبدأت أكتب بالعربية لأول مرة وكان ميدان كتابتي كلّ من جريدة "المحروسة" التي كان يخرجها والدي ومجلة "الزهور" التي كان يصدرها السيد أنطون الجميل..

موسيقـــى.....

- إنّك لم تعرفني بعد.. فتعال نتابع الطريق معاً لعلّك تهتدي إليّ..

لقد كنت فتاة برزة بين الرجال. لا أجد غضاضة في التحدّث إليهم في وقت كانت فيه المرأة العربية محتجبة عنهم. وكنت أستقبلهم في صالون أدبي اتخذته في منزلي بموافقة والدي وتشجيعهما. وكان يقصد هذا الصالون عدد من الكبراء والعلماء والأدباء والشعراء. لعلّك سمعت ببعضهم وقرأت له أو عرفته أنت شخصياً.. من هؤلاء الرجال الدكتور شبلي شميل والدكتور يعقوب صرّوف ثمّ إسماعيل باشا صبري وولي الدين يكن والدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم من الأدباء والعلماء والشعراء..

موسيقى.....

- ومضت أيام حافلة بالحركة والنشاط، أكتب في الصحف والمجلات المعروفة وأراسل الأصدقاء من رجال الفكر والأدب في مهاجر المغتربين ولا سيما جبران خليل جبران، كما أتبادل الرسائل مع بعض الأديبات الصديقات ولا سيّما السيدة جوليا طعمة دمشقية، وأشترك في المناقشات الأدبية والعلمية التي كانت تدور في منزلي. وكنت أشعر أنّ الرجال الذين يؤمّون المنزل قد وجدوا في مثل هذه المناقشات قاسماً مشتركاً يشدّ بعضهم إلى البعض. والثابت أنّ أكثرهم قد تأثّر بما كانت تقع عليه عينه وتسمعه أذنه فاستلهمه في تسطير الكثير من الفصول. وها هو مصطفى الرافعي يكتب أكثر من كتاب في ضوء الأجواء العاطفية والفكرية التي واجهها في منزلي. لقد كتب كتابَيه (أوراق الورد) و(السحاب الأحمر) نثراً من الشعر المرشوش بالأريج الطيب والنفثات الحارة وألوان الأحلام الذهبية..

موسيقـــــى.....

- وشاء القدر أن أصدر مطبوعاً في كتاب متواضع بعض الأحاديث والخطب التي سبق أن دبجتها بقلمي فظهرت في كتاب صغير بعنوان "كلمات وإشارات" وقد وضعت في هذا الكتاب خلاصة تأمّلاتي ونظراتي في المرأة خاصة والناس والحياة عامة..
- وقد غلب على أدبي في كتابي الفرنسي "أزاهير حلم" وكتابي العربي "كلمات وإشارات" روح رومانسي يختلط فيه التشاؤم اللين والرغبة المخلصة في خدمة الإنسان والاستمتاع بروائع الطبيعة ولا سيّما طبيعة لبنان.

هل تحبّ أن تسمع قصيدة من قصائدي الفرنسية؟ ها هي مترجمة إلى العربية بعنوان "دعوني".....

موسيقى خفيفة ترافق القصيـــدة..

دعوني في هذا الملجأ الساحر

دعوني وحيدة أحيا مطمئنة

بعيدة عن ضوضاء المـدن

دعوا لأنظاري تلك الرؤى العذبة

دعوا لأفكاري أحلامها الرخيـة

دعوني أنعم بالرقـاد

دعوني أياماً فإنّي لا أودّ أن أسمع

إلا الحفيف الخفيف الموسيقى الحنون

الذي تتنفّس به هذه الجبـال

ألا أبعدوا عنّي – ولو حيناً – أصوات البشر

التي تتبطّن الحسد والحقد والغلّ

هنا يطيب لنا الحبّ

****

أجل، يطيب لنا الحبّ بين الأشجار المنعزلة..

والخرائب البائدة، وما حملت من أخبار الزمان..

وهذه الصخرة الكئيبة..

كلّ ما في هذه الربوع يجذبني ويسحرني..

الأوراق التي أحسّها تنبض، والعصافير التي تغرد..

كلّما رأتني أدنو..

- ويشاء القدر أن تكون لكلّ بداية نهاية.. فقد مات أبواي على التعاقب ووجدت في العزلة سلوة لي ثمّ غالبتني ألوان من الوساوس. ووجدتني أقطع ما اتصل من الوشائج بيني وبين كبار القوم.. وراحت التجاعيد تغزو وجهي مبكرة وأنا ما أزال في أوائل العقد الخامس من عمري. وأخذت دنياي الحافلة بالفتوة والنشاط تغيب كما تغيب الشمس ترافقني ذكريات حزن عميق..

موسيقـــــــى.....

- وفي يوم من أيام عام 1941 ودّعت دنيا الناس لألقى وجه ربي ترافقني حسرات الأصدقاء ودموع المحبين..
- هل عرفتني الآن؟
- سأقدّم إليك أيّها المستمع الكريم آخر صورتين من صور حياتي وملامحها..

لقد غيّرت اسمي مرتين. كان والداي يسمّياني ماري وهو اسم الطفولة الأولى. ثمّ أغفلت هذا الاسم حين وضعت ديواني باللغة الفرنسية موقعاً باسم "ايزيس كوبيا". وعندما بدأت أكتب بالعربية وأشارك في النشاط الأدبي والنسوي اخترت الاسم الثاني الذي ما أزال أعرف به حتى اليوم وسأعرف به أبداً.

أمّا الصورة الثانية فهي التي اشترك في وضعها عدد من الرجال والنساء منهم أنا شخصياً والأديب ولي الدين يكن فيلسوف الفريكة أمين الريحاني وأيمي خير وعباس محمود العقاد والشاعر المغترب شفيق معلوف والشاعر اللبناني شبلي الملاط والدكتور منصور فهمي الذي حاضر عن شخصيتي وأدبي بمعهد الدراسات العربية عام 1954.

وسأختار لك يا عزيزي المستمع ما كتبته السيدة هدى شعراوي في التعريف بصورتي. قالت رحمها الله:

"ولم تكن على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال، ولكنّ نفسها كانت أجمل من وجهها، وروحها أجمل من صورتها، فكانت بين الجميلات لا تبدو أقلّ منهن فتنة، ولا أضأل نصيباً من الجاذبية، لقد كان يجملها بين الجميلات ويزيّنها بينهنّ شيء خفي، وسرّ مستبهم، لعلّه هو الذي حيّر الشاعر فقال:

شيء به فتن الورى غير الذي يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر عندي سر مستغلق، ولا خفي مبهم، فسِرّ جمالها كان في روحها، والجمال المعنوي هو ضرب من الجمال يسمو على كلّ جمال..

موسيقـــــى.....

- هذه لمحات من قصة حياتي وجملة مشاركاتي في الأدب والفكر والفن ولعلّي كنت في الحقيقة حافزاً لعقول المفكرين وقلوب الشعراء والأدباء أكثر منّي مشاركة في صنع الفكر وتدبيج الأدب فكنت ممّن يتردّدون على صالوني الأدبي كما قال العقاد رحمه الله يصفني:

شيم غرّ رضيّات عذاب وحجي ينفذ بالرأي الصواب

وذكاء ألمعي كالشهـاب وجمال قدسي لا يعـــاب

كلّ هذا في التراب؟ آه من هذا التـــــراب.....

موسيقـــــــى.....

- هل بدأت تعرفني؟ إذا كنت لم تهتد إلى اسمي بعد فاعلم أنّني مي زيادة – طفولتي في فلسطين، وصباي في لبنان، وبقية حياتي مقسّمة بين مصر ولبنان.....

موسيقى النهاية.....